

أهمية التفكير في خلق الله تعالى

..... بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِیْنَ، وَصَلَّى عَلَیْ أَسْرَفِ الْمُرْسَلِیْنَ نَبِیْنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِیْنَ. نَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا یَجِبُ عَلَی الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ، وَمَعْرِفَةَ نَبِیِّهِ، وَمَعْرِفَةَ دِیْنِ الْإِسْلَامِ، وَأَهْمَهَا وَأَعْلَاهَا مَعْرِفَةُ رَبِّهِ. وَقَدْ تَعَرَّفَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ بَابَانِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَنَصَبَهَا دَلَالَةً عَلَی قُدْرَتِهِ وَعَلَى كَمَالِ تَصَرُّفِهِ، وَلَفَتِ الْأَنْظَارَ إِلَيْهَا؛ حَتَّى یَعْرِفُوا بِالنَّظَرِ وَبِالتَّأَمُّلِ وَبِالتَّفَكُّرِ أَنَّ هَذِهِ الْآیَاتِ وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ دَالَّةٌ عَلَی عِظَمَةِ وَقُدْرَةِ مَنْ أَوْجَدَهَا. وَكُلُّهَا مِنْ خَلْقِ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِإِبْجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ، وَفِیْهَا آیَاتٌ وَعِبَرَةٌ تَدُلُّ عَلَی عِظَمَةِ مَنْ أَوْجَدَهَا. فَإِذَا تَفَكَّرَ الْمُسْلِمُ بِعَقْلِهِ وَبِفِکْرِهِ فِی أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى رَأَى فِیْهَا عَجَائِبَ، وَآیَاتٍ بَیِّنَاتٍ بَاهِرَةً، دَالَّةً عَلَی عِظَمَةِ مَنْ أَوْجَدَهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَلَوْ تَفَكَّرَ فِی خَلْقِ الْعَبُوضَةِ الَّتِی هِيَ مِنْ أَصْغَرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، الَّتِی نَشَاهِدُ، لَوَجَدَ فِیْهَا الْآیَاتِ وَالْعَجَائِبَ فَإِنَّ هَذِهِ الْعَبُوضَةَ مَعَ صِغَرِهَا تَبْصُرُ، وَعَیْنُهَا مَا لَا یَكُونُ مَقْدَارَ الْعَیْنِ، بَصَرُهَا أَقْوَى مِنْ بَصَرِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهَا تَبْصُرُ مَسَامًا الْإِنْسَانَ، فِی جَسَدِ الْإِنْسَانِ وَفِی جِلْدِهِ مَنَافِذَ رَقِیْقَةٍ، وَهِيَ الَّتِی یَخْرُجُ مِنْهَا الْعَرَقُ، هَذِهِ الْمَنَافِذُ لَا تَبْصُرُهَا أَنْتَ؛ حَتَّى وَلَا بِاسْتِعْمَالِ مَكْبَرٍ أَوْ مَجْهَرٍ، فَإِنَّكَ لَا تَبْصُرُهَا؛ وَلَكِنْ هَذِهِ الْعَبُوضَةُ تَبْصُرُهَا؛ وَلا جِلْدٌ ذَلِكَ تَقَعُ عَلَیْهَا. هَذَا دَلِیلٌ عَلَی أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهَا قُوَّةَ بَصَرٍ، كَذَلِكَ أَيْضًا أَعْطَاهَا اللَّهُ تَعَالَى الْآلَةَ الَّتِی تَخْرُقُ بِهَا الْجَسَدَ، شَبِیْهَةً بِخَرْطُومِ الْفِیْلِ، آلَةٌ دَقِیْقَةٌ مَحْدَدَةٌ، تَمْدِدُهَا لِتَخْرُقَ الْجِلْدَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى الدَّمِ؛ لَتَمْتَصِ مِنْ الدَّمِ، هَذِهِ الْآلَةُ، هَذَا الْخَرْطُومُ الدَّقِیْقُ الْمَحْدَدُ فِیهِ أَيْضًا جُوفٌ مَجُوفٌ، یَدْخُلُ مِنْهُ الدَّمُ الَّذِی تَمْتَصُهُ إِلَى أَنْ یَصِلَ إِلَى جُوفِهَا. لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا دَلِیلٌ عَلَی قُدْرَةِ الْقَادِرِ سُبْحَانَهُ؛ حَتَّى أَعْطَاهَا خَلْقَهَا كَامِلًا، فَلَهَا جُوفٌ، وَلَهَا أَعْضَاءٌ، وَلَهَا أَعْضَاءٌ یَجْرِی مِنْهَا ذَلِكَ الطَّعَامُ الَّذِی تَأْكُلُهُ وَالَّذِی تَعْتَدِی بِهِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى: هَذِهِ الدَّرَّةُ الَّتِی یَصْرُلُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا الْمَثَلُ فِی حَفَارَتِهَا وَفِی صِغَرِهَا، دَائِمًا یَمْتَلِئُ مِنْهَا ذَلِكَ الطَّعَامُ الَّذِی كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَیْرًا یَرَهُ وَفَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ } فَالذَّرَّةُ: هَذِهِ الْحِیَوَانَ الصَّغِیرَ، الَّذِی هُوَ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، رَكِبَ اللَّهُ لَهُ قِوَامٌ یَمِشِی عَلَیْهَا، وَلِقِوَامُهُ مَفَاصِلُ، وَلَهَا أَيْضًا أَصَابِعٌ تَمْتَسِكُ بِهَا، وَلا جِلْدٌ ذَلِكَ تَصْعَدُ فِی الْحِیْطَانِ، وَلَوْ كَانَتْ الْحِیْطَانُ مَلْسَاءً -بَعْنِی صَقِیْلَةً- تَمْتَسِكُ بِهَا. وَكَذَلِكَ أَيْضًا تَتَغَدَّى، تَأْكُلُ مِمَّا یَسِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا وَتَتَوَالِدُ، بَعْنِی: یَكُونُ لَهَا أَوْلَادٌ، بَیضٌ تَبْیَضُهُ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ یَفْقَسُ فِیْكَوْنُ مِثْلَ الْأَرْبَعِ الْفِصُولِ، مَعَ لَهَا أَيْضًا فِیْهِمْ، وَلَهَا إِدْرَاقٌ، وَلَهَا مَعْرِفَةٌ. لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا دَلِیلٌ عَلَی قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ذَكَرَ ابْنُ الْقَیْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِی بَعْضِ كِتَابِهِ: أَنَّ رَجُلًا حَكَى أَنَّ ذَرَّةً مِنَ الذَّرَاتِ وَجَدَتْ قِطْعَةً لَحْمٍ صَغِیرَةً، فَجَرَزَتْ عَنْ نَقْلِهَا، ثُمَّ إِنْبَاهَا ذَهَبَتْ، وَجَاءَتْ وَمَعَهَا عِدَّةٌ مِنَ الذَّرِّ -ثَلَاثٌ أَوْ أَرْبَعٌ- لَوْ اجْتَمَعْنَ عَلَی تِلْكَ الْقِطْعَةِ لِسَحْبِهَا وَحَمْلِهَا. لَمَّا رَأَاهُمْ قَدْ أَقْبَلْنَ رَفَعَتْ تِلْكَ الْقِطْعَةَ، فَجَنَّتْ وَنَظَرْنَ وَلَمْ یَجِدْنَهَا فِی الْمَوْضِعِ الَّذِی كَانَتْ تَعْبُدُهُ فِیهِ، ثُمَّ رَجَعْنَ وَتَقَبَّیَّتِ الْأَوَّلَى، وَلَمَّا بَقِیَتْ جَاءَ بِتِلْكَ الْقِطْعَةَ وَوَضَعَهَا، فَلَمَّا وَضَعَهَا وَرَأَتْهَا وَشَمَّتْهَا حَاطَتْهَا حَاطَتْهَا فَلَمْ تَقْدِرْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ذَهَبَتْ وَجَاءَتْ بِذَلِكَ الذَّرِّ الْأَخْرَبِ مِنْ قَبْلِ، فَلَمَّا أَقْبَلْنَ رَفَعَتْ الْقِطْعَةَ وَأَبْعَدَهَا، فَالْتَمَسْنَ وَلَمْ یَجِدْنَهَا، فَجَرَعْنَ وَبَقِیَتْ الْأَوَّلَى، ثُمَّ إِنْبَاهَا لَمَّا بَقِیَتْ وَضَعَتْ تِلْكَ الْقِطْعَةَ لَهَا، وَلَمَّا وَضَعَهَا وَشَمَّتْهَا، ذَهَبَتْ أَيْضًا تَرِيدُ أَنْ یَأْتِیَ مَعَهَا مِنْ نَقْلِهَا، فَلَمَّا رَأَاهُمْ قَدْ أَقْبَلْنَ رَفَعَهَا، فَلَمَّا جَنَّتْ وَلَمْ یَجِدْنَهَا عَمِدْنَ إِلَى تِلْكَ الذَّرَّةِ، فَعَضَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ قَائِمَةً مِنْ قِوَامِهَا، وَقَطَعَتْهَا أَوْ أَنْهَا كَلْفَتْهَا وَتَعَبَتْهَا وَكَذِبَتْ عَلَیْهِنَّ!! فَهَذَا دَلِیلٌ عَلَی أَنَّ اللَّهَ رَكِبَ فِیْهِنَّ عَقُولًا وَأَفْهَامًا یُنَاسِبُ مَا خَلَقْنَ لَهُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا كَلَفَ هَذِهِ الدُّوَابَّ، وَإِنَّمَا خَلَقَتْ آیَةَ وَعِبْرَةً لِلْمَعْتَبِرِیْنَ. بَعْنِی: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الدُّوَابَّ، وَهَذِهِ الْحَشْرَاتُ، وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الصَّغِیرَةَ آیَةً وَعِبْرَةً لِلْمَعْتَبِرِیْنَ، أَوْ: لِمَنْ یَتَفَكَّرُ مِنْ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْعَقْلَ... الْإِنْسَانَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَلَهُ بِالْعَقْلِ، حَيْثُ یَتَفَكَّرُ وَیَتَأَمَّلُ وَیَتَعَقَّلُ وَیَعْرِفُ أَنَّ الَّذِی أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ قَادِرٌ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا خَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عِنَّا، وَلَمْ یَتْرَكْهَا هَمَلًا، وَأَنَّهَا مَا خَلَقَتْ أَنْفُسَهَا، بَلْ لَا يَدُ لَهَا مِنْ خَالِقِ خَلْقِهَا، سِوَاكَ كَانَتْ مِنَ الْحِیَوَانَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ، أَوْ مِنَ النَّبَاتَاتِ النَّامِیَةِ، أَوْ مِنَ الْجَمَادَاتِ، أَنَّ كَلَامًا مِنْهَا دَلِیلٌ عَلَی قُدْرَةِ مَنْ خَلَقَهَا وَأَوْجَدَهَا، إِذَا تَأَمَّلَ فِیْهَا الْعَاقِلُ بِعَقْلِهِ وَبِثَاقِبِ بَصَرِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى یُرِزُّ قِیَاسًا فِی الْبَصِیرَةِ وَیَعْرِفُ بِذَلِكَ عِظَمَةَ مَنْ أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ. إِذَا كَانَ ذَا بَصِیرَةٍ فِی أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِی خَلْقِهِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَأَنَّهُ الَّذِی خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَلَوِیَّةَ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهَا سَبْعٌ { سَبْعًا سَبْدًا } { لَا سَبْعَ سَبْعًا وَفَوْقَ طَبَقًا } وَبَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فِی قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَتَبَتْ قُوَّتُكُمْ سَبْعًا سَبْدًا } أَيْ سَبْعَ مَخْلُوقَاتٍ بَنَاهَنَّ اللَّهُ تَعَالَى، لَا یَعْرِفُ قُدْرَتَهُ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ، وَبَعْضُهَا فَوْقَ سَبْعِهَا، أَيْ: أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ. كَذَلِكَ أَيْضًا وَبَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ تَعَالَى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَلْقَ اللَّهِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَقًا } أَيْ طَبَقًا فَوْقَ طَبَقٍ، أَوْ جَعَلَهَا طَبَقًا، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. لَا شَكَّ أَيْضًا أَنَّ ذَلِكَ دَلِیلٌ عَلَی عِظَمَةِ وَقُدْرَةِ مَنْ أَوْجَدَهَا. وَكَذَلِكَ أَيْضًا أَخْبَرَ بَأَنَّهُ خَلَقَ لَنَا هَذِهِ الْأَرْضَ، وَأَنَّهُ بَسَطَهَا، وَأَمَرَنَا بِأَنَّ تَتَأَمَّلَ وَتَتَفَكَّرَ فِیْهَا، لِأَنَّكَ مِنْ ذَلِكَ عِبْرَةٌ عَلَی عِظَمَةِ مَنْ أَوْجَدَهَا وَخَلَقَهَا، إِذَا مَشِیتَ فِی الْأَرْضِ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فِی قَوْلِهِ تَعَالَى: { قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ قَانِطِرُوا } الَّذِی یَسِیرُ فِیْهَا یَجِدُ فِیْهَا عَجَائِبَ تَدُلُّ عَلَی عِظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَإِنَّكَ تَسِیرُ مِثْلًا فِی وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ فِی أَرْضٍ صَحْرَاءَ تَرِیْبَةٍ مُسْتَوِیَةٍ، لَا تَرَى فِیْهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، ثُمَّ تَنْتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَرْضٍ رَمْلِیَّةٍ أَوْ: فِیْهَا كُتُبٌ مَرْتَفَعَةٌ وَمُنْخَفَضَةٌ، وَتَسِیرُ أَحِبَانًا بَعْدَهَا وَتَجِدُ أَرْضًا غَیْرَ مُسْتَوِیَةٍ، بَلْ فِیْهَا مَرْتَفَعَاتٌ كَتَبَتْهَا جِبَالٌ وَإِنْ لَمْ یَكُنْ جِبَالًا، وَتَسِیرُ أَيْضًا فِی أَرْضٍ أُخْرَى، فَتَجِدُ الْأَرْضَ الْجَبَلِیَّةَ الَّتِی فِیْهَا جِبَالٌ مُتَوَسِّطَةٌ، أَوْ الْجِبَالُ الشَّاهِقَةُ الْمَرْتَفَعَةُ. هَذِهِ لَوْنُهَا كَذَا وَكَذَا، كَمَا فِی قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: { وَمِنْ الْجِبَالِ جُدُدٌ بَیضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَائِبٌ سُودٌ } أَيْ: أَنَّهُ جَعَلَهَا أَوْ: مِنْهَا مَا هُوَ بَیضٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ حُمْرٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ سَوْدٌ غَرِیْبٌ، بَعْنِی: شَدِیدٌ سَوَادُهَا. فَجَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِبْرَةً وَجَعَلَ فِیْهَا عِظَاتٍ آیَاتٍ وَمَنَافِعَ، وَأَحِبَانًا یَكُونُ تِلْكَ الْجِبَالُ مَعَ رِفَاعِهَا مُسْتَقَرًّا لِكَثْرَةِ النَّاسِ، فِیَسْكُنُونَ فِی قِیَمِ الْجِبَالِ، وَقَدْ یَجِدُونَ فِیْهَا مُسْتَقَرًّا فِیْنِیَّتِ فِیْهَا نَبَاتٌ یَأْكُلُونَ مِنْهَا، وَیَعْرِونَ بِهَاتِمِهِمْ، فَبِنِیَّتِ فِیْهَا شَیْءٌ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِی هِيَ غِذَاءٌ لِلْإِنْسَانِ، أَوْ غِذَاءٌ لِلْحِیَوَانَاتِ. وَقَدْ یَكُونُ أَيْضًا فِیْهَا مُسْتَقَرٌّ لِلْمَیَاءِ مَعَ رِفَاعِهَا، یَكُونُ فِی أَجْوَافِ تِلْكَ الْجِبَالِ مُسْتَوْدَعَاتٌ لِلْمَاءِ إِذَا نَزَلَ الْمَاءُ حَفِظَتْهُ، ثُمَّ یَسْتَخْرِجُونَهُ. كَمَا تَوْجَدُ أَيْضًا تِلْكَ الْمُسْتَوْدَعَاتُ فِی الْأَرْضِ فِی كَثِیرٍ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، أَيْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَرْضَ فَهِيَ مَجُوفَةٌ، إِذَا جَاءَ الْمَطَرُ امْتَلَأَتْ تِلْكَ الْمُسْتَوْدَعَاتُ الَّتِی فِیْهَا، وَالَّتِی فِی جُوفِهَا فَامْتَلَأَتْ مِنْ هَذَا الْمَاءِ، وَرَبِمَا إِذَا امْتَلَأَتْ یَنْبَعُ فَوْقَ الْأَرْضِ، وَیَجْرِی عِیونًا، كَمَا فِی قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: { وَفَجَّرْنَا فِیْهَا مِنَ الْعُیُونِ لَیَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِیْهِمْ } أَيْ: فَجَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ الْأَرْضَ عِیونًا، وَأَنْبَعٌ مِنْهَا هَذَا الْمَاءُ، أَوْ جَعَلَ مُسْتَوْدَعَاتِهَا، یَسْتَخْرِجُونَهُ بِأَلْفِیَّتِهِمْ وَأَجْهَزَتِهِمْ، یَحْتَاجُ إِلَیْهِ لِلشَّرْبِ أَوْ لِلسَّقَى الدُّوَابَّ، أَوْ لِلسَّقَى الْأَشْجَارِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَهَكَذَا أَيْضًا إِذَا أَنْزَلَ الْمَاءَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ الْمُسْتَوِیَّةَ تَنْبَتُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْوَاعًا مِنَ النَّبَاتَاتِ مَعَ اخْتِلَافِهَا، فَمِنْهَا مَا یَكُونُ طَعَامًا وَعَلْفًا لِلْإِنْسَانِ، وَمِنْهَا مَا یَكُونُ عَلْفًا لِلطَّیْئُورِ، وَمِنْهَا مَا یَكُونُ عَلْفًا لِلدُّوَابِّ وَاللُّوْحُوشِ وَاللِّحَشْرَاتِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. كَلِّهَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِی هَذِهِ الْأَرْضِ مَا تَسْتَقِرُّ لَهُ، وَمَا تَعِیشُ بِهِ. لَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ دَلِیلٌ عَلَی عِظَمَةِ وَقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَی كُلِّ شَیْءٍ. كَذَلِكَ أَيْضًا: إِذَا نَظَرْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِحَارِ الَّتِی تَمْتَدُّ عَلَی وَجْهِ الْأَرْضِ، أَوْ شَیْءٌ یَمْدِدُهَا! لَمَّاذَا مَا نَصَبْتَ مَعَ تَتَابَعِ الْقُرُونِ عَلَیْهَا، أَلُوفَ السِّنِّیْنَ مَا نَصَبْتَ وَلا قُلْ مَاؤُهَا، وَلا غَارَتْ بَلْ مَعَ تَتَابَعِ الْقُرُونِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ، مَمْدُودَةٌ الْأَطْرَافِ لَا یرِی طَرَفًا. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ الْإِنْسَانَ الْأَدْوَابَ وَالآلَاتِ الَّتِی یَسِیرُ بِهَا فِی الْبَحْرِ، فَعَلِمَ اللَّهُ نَبِیَّهُ نَوْحًا فَصَنَعَ سَفِینَةً كَبِیرَةً حَمَلَ فِیْهَا مِنْ أَمْنٍ مَعَهُ، وَحَمَلَ فِیْهَا الدُّوَابَّ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: { ائْتِ بِهَا مِنْهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ ائْتِیْنِ } مِنْ كُلِّ الدُّوَابِّ، وَمِنْ كُلِّ الْحَشْرَاتِ، وَمِنْ كُلِّ الْبِهَائِمِ، حَشْرُهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، فَحَمَلَ مِنَ الْأَغْنَامِ مِثْلًا، مِنَ الْبَقْرِ، مِنَ الْإِبِلِ، مِنَ الْحَمْرِ، مِنَ الْخِیْلِ، مِنَ السَّبَاعِ، مِنَ الْفِیْلِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. { مِنْ كُلِّ رَوْحٍ ائْتِیْنِ }؛ لِأَنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِأَنَّ ذَلِكَ الْعَرَقُ یُعْرِقُ مَنْ عَلَی وَجْهِ الْأَرْضِ، حَتَّى الْبِهَائِمِ الَّتِی لَیْسَ لَهَا ذَنْبٌ، وَلَكِنْ قَضَى اللَّهُ تَعَالَى بِإِهْلَاقِهَا، كَمَا یَهْلِكُهَا إِذَا شَاءَ. فَهَذِهِ السَّفِینُ الَّتِی أَوَّلَ مَنْ صَنَعَهَا نَبِیُّ اللَّهِ نَوْحٌ آیَةً مِنَ آیَاتِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: { وَآیَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِی الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا یَرْكَبُونَ } فِیَدْخُلُ فِی ذَلِكَ الْمَرَاكِبِ... تَدْخُلُ فِی قَوْلِهِ: { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا یَرْكَبُونَ } فَهِيَ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى وَابْجَادَهُ. الْمَرَاكِبُ الْبَحْرِیَّةَ، وَالْمَرَاكِبُ الْبَرِیَّةَ كَمَا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آیَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. جَعَلَ اللَّهُ فِی هَذِهِ الْأَرْضِ هَذِهِ الْمَوَادِّ، الَّتِی تَخْلُقُ مِنْهَا هَذِهِ الْأَدْوَابَ. وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ رِخَاءً قَابِلَةً لِلنَّبَاتِ، تَنْبَتُ مَا یَحْتَاجُ إِلَیْهِ الْبِشْرُ. لَوْ كَانَتْ الْأَرْضُ صَخْرَیَّةً أَوْ لَوْ كَانَتْ حَتَّى مِنْ ذَهَبٍ أَوْ مِنْ فَضَّةٍ لَا تَنْبَتُ نَبَاتًا، لَهْلَكَتْ مَنْ یَأْكُلُونَ؟! اللَّهُ جَعَلَهَا قَابِلَةً لِلنَّبَاتِ، وَهَذِهِ مِنْ آیَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّكَ تَدْفِنُ الْحَبَّةَ فِیْهَا، ثُمَّ تَسْقِیْهَا، فَتَنْبَتُ وَیَكُونُ فِیْهَا هَذَا السَّبِیلُ الْمُرْتَكِبُ حَبًا، مِمَّا یَكُونُ غِذَاءً، وَیَكُونُ فِیْهَا أَيْضًا نَبَاتَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، مِنْهَا مَا هُوَ غِذَاءٌ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنْهَا غِذَاءٌ لِلْبِهَائِمِ إِلَى غَیْرِ ذَلِكَ. لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا دَلِیلٌ عَلَی قُدْرَةِ الْقَادِرِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ، وَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصَبَ الْأَدْلَةَ الَّتِی تَدُلُّ عِبَادَهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَلَى أَنَّ لَهُمْ رَبًّا قَادِرًا عَلَی كُلِّ شَیْءٍ، فَإِنَّ أَهْلَ الْعُقُولِ وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ یَدْعُونَ لِرَبِّهِمْ، وَیَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَی كُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَأَنَّ خَلْقَهُ الَّذِينَ هُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَیْهِمْ أَنْ یَدْعُوهُ بِطَاعَتِهِ، وَأَنْ یَسْمَعُوا وَیَطِيعُوا، وَأَنْ یَتَقَرَّبُوا إِلَیْهِ بِالْقُرْبَاتِ، وَأَنْ یَتَّبِعُوا شَرْعَهُ، وَأَنْ یَمْتَلِئُوا أَمْرَهُ، وَیَتْرَكُوا زَجْرَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَقُّهُ عَلَیْهِمْ، بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا أَنْفُسَهُمْ، وَعَرَفُوا رَبَّهُمْ بِآیَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ وَبِعَجَائِزِهِ، وَعَرَفُوا شَرْعَهُ الَّذِی أَنْزَلَهُ عَلَی رَسَلِهِ، وَصَمَّتْهُ كِتَابَهُ، فَمِنْ رِزْقِهِمْ اللَّهُ تَعَالَى فِكْرًا وَعَقْلًا ثَاقِبًا فَإِنَّهُمْ یَعْتَرِفُونَ لِرَبِّهِمْ بِفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَیْهِمْ، وَیَحْرُصُونَ عَلَی أَنْ یَدْبِنُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِالْعِبُودِیَّةِ. یَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لَهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ یَحْرُصُونَ عَلَی أَنْ یَتَقَرَّبُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِكُلِّ مَا یَحِبُّ فَعَلَهُ مِنْهُمْ، مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِی كَلَّفَهُمْ بِهَا، فِیَفْعَلُونَهَا، وَیَتْرَكُ الْحَرَمَاتِ الَّتِی نَهَاہُمْ عَنْهَا فِیَتْرَكُونَهَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعِبَادِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا یَتَذَكَّرُ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ، وَیَعْتَرِفُ بِهِ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ، وَأَهْلُ الْفِیْهِمِ وَالْإِدْرَاقِ، وَأَهْلُ الْعُقُولِ الرَّائِیَةِ. فَأَمَّا مَنْ سَلِبُوا الْفِیْهِمَ وَالْإِدْرَاقَ، فَإِنَّهُمْ لَا یَعْتَبِرُونَ، وَلَوْ رَأَوْا كُلَّ آیَةٍ! كَمَا فِی قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى { وَإِنْ یَرَوْا كَلِمَةً تَنْبِیْءًا لَا یُؤْمِنُ بِهَا } بَعْنِی: الَّذِينَ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَیْهِمْ بِأَنَّهُمْ مَحْرُومُونَ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَا نُعْنِی الْأَبَاتُ وَالذُّرَّ عَنْ قَوْمٍ لَا یُؤْمِنُونَ } فَهَمْ یَبْرُونَ آیَاتِ اللَّهِ، وَیَشَاهِدُونَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَیَبْرُونَ فِیْهَا عَجَائِبَ صَنْعِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا یَعْتَبِرُونَ وَلَا یَلْتَفِتُونَ إِلَى دَلَالَتِهَا، فِیْكَوْنُ ذَلِكَ سَبَبًا فِی حَرَمَانِهِمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَرَمَانِهِمْ مِنْ نَوَابِیْهِ فِی دَارِ كِرَامَتِهِ، فِیْكَوْنُونَ أَشْبَهَ بِالْبِهَائِمِ الَّتِی لَا عَقُولَ لَهَا، فَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَثَلَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْجِبَانَاتِ وَنَحْوِهَا، كَمَا فِی قَوْلِهِ تَعَالَى: { مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ تَحْمِلُ أَثْقَالَ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ } هَكَذَا مَثَلُ: { الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ یَحْمِلُوهَا } وَهَكَذَا أَيْضًا الَّذِينَ نَعِمَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَأَوْرَثَهُمْ هَذَا الْكِتَابَ فِی قَوْلِهِ تَعَالَى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } فَالَّذِينَ أَوْرَثَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ وَلِكِنِّهِمْ لَمْ یَعْمَلُوا بِهِ، یَصْدُقُ عَلَیْهِمْ هَذَا الْمَثَلُ، أَنَّهُمْ كَمَثَلِ الْجِمَارِ یَحْمِلُ أَثْقَالَهَا!! لَوْ أَنَّ حِمَارًا مِنَ الْحَمْرِ الْأَهْلِیَّةِ الَّتِی تُرَكَّبُ حُمَلٌ عَلَیْهِ مِثْلًا مَائَةً كِتَابٌ، هَلْ یَسْتَفِیدُ؟ لَا یَسْتَفِیدُ وَلَا یَدْرِی مَا یَحْمِلُ عَلَیْهِ! وَكَذَلِكَ أَيْضًا ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَيْضًا بِالْحَمْرِ، فِی قَوْلِهِ تَعَالَى: { قَمَا لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ مَعْزُورٌ مَعْزُورَةٌ قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ } أَيْ: إِنَّهُمْ یُوعَطُونَ وَلَا یَتَعَطُونَ، بَعْنِی: یَهْرَبُونَ مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَیَهْرَبُونَ مِنْ أَمَاكِنِ الذِّكْرِ، إِذَا سَمِعُوا الذِّكْرَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَإِذَا سَمِعُوا مَوْعِظَةً هَرَبُوا مِنْهَا. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لَهَا بِالْحَمْرِ إِذَا رَأَتْ الْأَسَدَ، فَإِنَّهَا تَهْرَبُ مِنْهُ، سِوَاكَ كَانَتْ حَمْرًا وَحَتِیْبَةً بَعْنِی.. الَّتِی هِيَ الْوَعُولُ وَنَحْوَهَا أَوْ حَمْرًا أَهْلِیَّةً، الْأَهْلِیَّةُ الَّتِی هِيَ الْإِنْسَانِیَّةُ، كَلِّهَا إِذَا رَأَتْ قَسُورَةً -الَّذِی هُوَ الْأَسَدُ- هَرَبَتْ، فَهَذَا مِثْلٌ سِوَاكَ لِمَنْ حَرَمُوا مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ، وَحَرَمُوا مِنْ ذِكْرِهِ وَالْإِتْعَاطِ وَالتَّذَكُّرِ وَحُضُورِ مَجَالِسِ الذِّكْرِ. فَالْإِنْسَانُ عَلَیْهِ أَنْ یَبْرَأَ مِنْ نَفْسِهِ عَنْ أَنْ یَكُونَ یَسْبِیْهَا بِهَذِهِ الْبِهَائِمِ الَّتِی لَا حِسَابَ عَلَیْهَا، فَلَا یَهْرَبُ مِنْ أَمَاكِنِ الذِّكْرِ وَنَحْوِهَا بَلْ یَتَأَمَّلُ وَیَتَفَكَّرُ وَیَتَعَقَّلُ.. فِیهِ. وَكَذَلِكَ أَيْضًا ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مَثَلًا فِی قَوْلِهِ تَعَالَى { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْیِ یَبْأُ لَا یَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ضَمُّ كُفْرًا عُمِّيٌّ فَهَمْ لَا یَعْقِلُونَ } هَكَذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمَثَلَ الْعَنِیقِ: نَبِیُّ الرِّاعِیِّ، یَنْعَقُ بِالْغَنَمِ، هَلِ الْغَنَمُ تَفْهَمُ؟ لَا تَفْهَمُ. وَلَكِنِّهَا تَسْمَعُ صَوْتًا وَتَتَّبِعُ ذَلِكَ النَّاعِقِ. الَّذِی یَنْعَقُ بِمَا لَا یَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، سَمَاعُهُ مِنْ غَیْرِ عَقْلِ. لَا شَكَّ أَنَّ الْغَنَمَ وَالْإِبِلَ وَنَحْوَهَا إِذَا نَعَقَ لَهَا الرَّاعِیُّ فَإِنَّهَا تَتَّبِعُهُ، وَلَكِنْ هَلِ تَفْهَمُ مَا یَقُولُ؟ إِنَّمَا مَجْرَدُ الصَّوْتِ تَتَّبِعُهُ، وَلَا تَفْهَمُ إِذَا قَالَ لَهَا: قَفِی، وَلَا إِذَا قَالَ لَهَا: اذْهَبِ یَمِینًا أَوْ شَمَالًا! لَا تَفْهَمُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا بِهَائِمٌ. فَهَذَا مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا { كَمَثَلِ الذِّبْیِ یَبْأُ لَا یَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً } فَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَصَبَ هَذِهِ الْآیَاتِ وَالْدَلَالَاتِ، فَإِنَّمَا یَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الْعُقُولِ وَأَهْلُ الْفِیْهِمِ وَأَهْلُ الذِّكَاةِ الَّذِينَ اسْتَعْمَلُوا عُقُولَهُمْ فِیْمَا یَنْفَعُهُمْ. دُونَ مَنْ صَدَّ بَقْلَهُ عَنْ ذَلِكَ أَوْ جَعَلَ عِلْمَهُ وَعَقْلَهُ وَتَفَكُّيرَهُ فِی أُمُورٍ دُنِیَّةٍ.